تقنية التقديم والتّأخير بين المقتضى الإيقاعي والمطلب الدلالي

The technique of presentation and delay between rhythmic requirement and semantic demand

مصطفى رافع *

تاريخ الإرسال: 2020/02/09	تاريخ القبول:2020/03/21	تاريخ النشر:2020/06/30

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز المقتضيات الإيقاعية والأبعاد الدلالية لتقنية التقديم والتأخير بوصفها عدولا عن الصرامة المثالية للتركيب، وظاهرة بلاغية لها مكانتها في الدرس البلاغي عموما ومبحث علم المعاني خصوصا، من خلال بيان طاقاتها في بناء العبارة الشعرية من طرف المبدع وإمكاناتها في فعل القراءة لدى المتلقي.

الكلمات المفتاحية: التقديم والتأخير، التركيب، العدول، الإيقاع، الأبعاد الدلالية.

Abstract:

This study aims to highlight the rhythmic requirement and semantic dimensions of the technique of presentation, and delay as a departure from the ideal rigor of the structure, and a rhetorical phenomenon that has its place in the rhetorical lesson in general, and the science of meanings in particular by showing its energies in building the poetic phrase by the creator and its capabilities in the act of reading to the recipient.

***Key words**: presentation and delay; installation; reflection; rhythm; semantic dimensions*

*** *** ***

المؤلف المرسل: مصطفى رافع m.rafa@univ-bouira.dz

*جامعة البويرة m.rafa@univ-bouira.dz

1.مقدمة:

تمثل البنى التركيبية عاملا مهما في تشكيل النص الشعري كونها أداة لغوية يمكن للشاعر امتلاكها، وتظهر ملامح البنية التركيبية بوصفها أداة في تشكيل النص في أنماط عدة منها الحذف والتقديم والتأخير ، هذا الأخير الذي يُعتبر من التقنيات التي يوظفها الشاعر في تشكيل العبارة الشعرية، ومن المباحث البلاغية التي تحتل موقعا إستراتيجيا في خارطة الدرس البلاغي عموما، وعلم المعاني خصوصا، حيث نجدها شغلت حيزا معتبرا في الممارسة البلاغية، ونالت اهتماما كبيرا عند البلاغيين، حيث اتجهت اهتماماتهم إلى بيان الدلالات والأغراض لهذه الأداة البلاغية.

إشكالية الدراسة: تتأسس الدراسة على إشكاليتين هما :

كيف يمكن استثمار طاقات التقديم والتأخير بوصفه ظاهرة بلاغية وتقنية فنية في تشكيل العبارة الشعرية واستثمار إمكاناته في قراءة النص الشعري وتأويله؟

ما هو الأثر الذي تحدثه هذه الأداة البلاغية في جمالية النص الشعري ؟

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف نوجزها فيما يلي:

-إبراز طاقات التقديم والتأخير كتقنية في بناء العبارة الشعرية فنيا من طرف المبدع وإمكاناته في فعل القراءة من قبل المتلقي جماليا.

منهجية الدراسة: اشتملت الدراسة على ثلاثة محاور هي:

ـ تقنية التقديم والتأخير بوصفها عدولا عن المعيار.

ـ مبحث التقديم والتأخير بين الرؤية النحوية والرؤية البلاغية.

ـ الضابط الإيقاعي والبعد الدلالي في ظاهرة التقديم والتأخير.

2. تقنية التقديم والتأخير بوصفها عدولا عن المعيار:

تشكل مواقع العناصر المكونة للجملة بؤرة المعطى الدلالي والفني في الجملة وفي النص؛ فمنه نقرأ التركيب النحوي " صورة النحو " لنلاحظ الأثر الجمالي الذي يخلقه انزياح الجملة عن نسقها المعياري النحوي من خلال بؤرة التوتر الشعري كالتقديم والتأخير والاعتراض والحذف... وغيرها، وكذلك نقرأ التركيب البلاغي " الصورة الشعرية" باعتباره يتوازى مع التركيب النحوي من حيث التركيب، فكلاهما يشكل بؤرة شعرية من العلاقات بين المفردات في مواقعها، التركيب النحوي على مستوى العلاقة النحوية، والتركيب البلاغي على مستوى العلاقة الإسنادية بين المسند والمسند إليه، والعلاقة المجازية بين المسندات، مما يخلق نسقا مخالفا للعلاقة المعيارية، فيشكل بؤرة التوتر الشعري[1].

يقتضي النظام اللغوي تقديم ما حقه التقديم وتأخير ما حقه التأخير كتقديم المبتدإ على الخبر وتقديم الفاعل على المفعول... إلا أن أغراضا بلاغية وجمالية تقتضي غير ذلك حيث يقدم ما حقه التأخير ويؤخر ما حقه التقديم.

وعليه يعد مبحث التقديم والتأخير أو مسألة الترتيب في نظام الجملة مسألة لها أهميتها القصوى في الدرس التركيبي والبلاغي والدلالي، فقد أولى النحاة والدلاليون والبلاغيون هذا المبحث عناية خاصة، فقد اهتم البلاغيون بالبحث عن التقديم والتأخير وأسراره البلاغية فركزوا على دلالات التراكيب وبيان أثر ذلك في المعنى، فربطوا تحول العناصر في الجملة التركيبية عن موضعها بالدلالة فتوجهت جهودهم نحو استقصاء الدلالات والمعاني والأغراض.

إن الترتيب ما خولف إلا لحكمة، فتقديم جزء من الكلام أو تأخيره لا يرد اعتباطا في نظم الكلام وتأليفه، وإنما يكون عملا مقصودا يقتضيه غرض بلاغي، إذ إن الخروج عن أصل الترتيب يكون تحقيقا لغرض بلاغي، كما أن أي عدول عن الأصل لا يرد خلوا من معنى زائد، فبلاغة التقديم والتأخير مرتبطة بأثرها الفني على المعنى؛ بمعنى أن

هذا الأسلوب لا تكون له قيمته الفنية إلا إذا وظف في تجسيد أغراض فنية خاصة لا تكون بغير ذلك الأسلوب[2].

إن تغير الترتيب يمثل عدولا عن الأصل المثالي واختراقا للحركة الأفقية المنتظمة المسيطرة على بنيته العميقة تبعا لعنصر القصد عند المبدع، لأن مجرد مخالفة الترتيب المثالي ينبئ عن غرض ما يوجب التفات المتلقي إليه، ثم إن تغير ترتيب الجملة عن نظامه الأصلي الذي قررته القواعد النحوية؛ بحيث يتقدم عنصر فيها كان حقه التأخير، أو يتأخر عنصر آخر فيما كان أصله التقديم، كل ذلك خليق بأن ينظر إليه ويبحث فيه عن علة التقديم أو التأخير، حيث يسفر هذا البحث عن أغراض بلاغية وأبعاد دلالية يرومها المتكلم، فيرتب الكلمات في التركيب وفق ترتيبها في النفس.

ويأتي مبحث التقديم والتأخير من أهم المباحث في علم البلاغة العربية فهو واحد من أبرز الأركان التي يقوم عليها علم المعاني، كما تعتبر ظاهرة التقديم والتأخير من أحسن الآليات التي تسمو بالخطاب إلى مقام الشعرية نظرا لما تكسبه للغة من مرونة، حيث تمنح فاعليتها التركيب تميزا يحمل القارئ على متعة الاكتشاف لاستكناه الدلالة التي يحملها هذا الخرق التركيبي، حيث تبرز فاعليتها كظاهرة بلاغية من خلال استفزازها للقارئ ودفعه إلى تلمس الأثر الدلالي لهذه الجسارة التركيبية، ثم إنّ ظاهرة التقديم والتّأخير تعدّ خرقا للمعيار النحويّ، وانفلاتا من دائرته المعيارية، هذا الانفلات الذي يسمح بتشكيل العبارة تشكيلا جماليا يتضمّن أغراضا جديدة، فتغيير مواقع الكلمات يكون في ضوء المعنى تحقيقا للغرض الذي تنبني عليه التراكيب، وذلك بغية تفعيل دورها تحقيقا للمعنى المقصود، فخرق الجملة وما يلحقها من تغيرات ضمن العلاقات التي تستند إلى ترتيب الألفاظ على وجه مخصوص إنما يرجع إلى المعنى ومتطلباته، أي أنّ المعنى هو الذي يتطلّب هذا التغيير، وهذا يسهم في الكشف عن الأغراض والدلالات المتولدة من الترتيب الخاص، ومن هنا اهتم البلاغيون بالبحث عن التقديم والتأخير وأسراره البلاغية، فركزوا على دلالات التراكيب وبيان أثر ذلك في المعنى، فقاموا بربط تحول عناصر الجملة التركيبية عن

موضعها بالدلالة، فتوجهت جهودهم نحو استقصاء الدلالات والمعاني، فكانت جهودهم موجهة إلى معرفة دقائق الكلام والفروق بين التراكيب ووجوه الاختلاف بينها.

إنّ ظاهرة التقديم والتّأخير باعتبارها مظهرا من مظاهر العدول، والذي يعتمد على تكسير العرف اللغوي، والخروج عن المألوف من العلاقات الإسنادية المتداولة إلى مستوى أرحب يرتقي بالنّصّ من خلال إضفاء سمة جمالية عليه، فالعدول عن الأداء المثاليّ للعبارة هو مبدأ جماليّ أسّسه البلاغيون في سبيل الكشف عن الطاقات التعبيرية في النص، والوقوف عند المناحي الجديدة في التعبير، والكشف عن المعاني والدلالات المتولدة، ومن هنا عُدّ محورا رئيسيا في الدرس البلاغيّ.

وتعدّ ظاهرة التقديم والتأخير من الأبواب التي ذكرها الجرجانيّ لتطبيق فكرة النظم، حيث أفرد لهذه الظاهرة فصلا في كتابه دلائل الإعجاز وفصّل فيها القول فهي عنده " باب كثير الفوائد جمّ المحاسن، واسع التّصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة[3]".

3.مبحث التقديم والتأخير بين الرؤية النحوية والرؤية البلاغية:

إنّ الدارسين قبل الجرجانيّ كان أكثرهم يكتفي بالإشارة إلى موضع التقديم وبيان أصل العبارة، فسيبويه أثناء حديثه عن ظاهرة التقديم والتأخير يقول: " كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى[4] "، فسيبويه مثلا وإن كان له قصب السبق، فالجرجاني أحسن تعليلها وكشف عن بلاغتها، وتجاوز ما وقف عنده سيبويه، فنجده يعلّق على ذلك من خلال قوله: " وقد وقع في ظنون الناس أنّه يكفي أن يقال : إنّه قدّم للعناية، ولأنّ ذكره أهمّ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، وبم كان أهمّ[5] "، وبهذا يمثل عبد القاهر الجرجاني الفهم الواعي لمسألة التقديم والتأخير وما تقتضيه مقامات الكلام، لذا نجده ملأ كتابه " دلائل الإعجاز " ببيان الفروق الدلالية بين التراكيب التي يقتضيها التقديم والتأخير، وربط هذه الفروق بمعاني النحو ومقاصد المتكلمين وجعلها المآل الذي ترجع إليه جودة الكلام، فانصب اتجاهه الفكري على النظر في الجانب الدلالي للتراكيب

جاعلا التقديم والتأخير من أهم مباحث علم المعاني لما يكمن وراءه من أسرار بلاغية ولطائف دلالية، ومن هنا يتضح لنا الفرق بين المعالجة النحوية والمعالجة البلاغية للتركيب، فإذا كان النحاة قد أقاموا مباحثهم على رعاية الأداء المثالي فإن البلاغيين ساروا في اتجاه آخر من حيث أقاموا مباحثهم على أساس تجاوز هذه المثالية أو الخروج عليها في الأداء الفني الذي يرتبط بسياقاته المتعددة، فإذا كان النحوي يهتم بما يفيد أصل المعنى فإن البلاغي يبدأ حركيته ونشاطه فيما يلي هذا مع تركيز النظر على العناصر الجمالية، فينبغي أثناء دراسة ظاهرة التقديم والتأخير تجاوز الحديث عن معيار الصحة النحوية للتركيب إلى الحديث عن الجوانب الفنية من ذلك، وعليه فخرق الجملة العربية والتشويش على ترتيبها يجب أن يثير انتباه المحلل[6]، فالانحراف عن النسق المثالي للتعبير يحدث نوعا من الإثارة لدى المتلقي، لأنّ مواقع الكلمات ونسجها له دلالة لا تنكر[7].

4.الضابط الإيقاعي والبعد الدلالي في ظاهرة التقديم والتأخير:

لما كانت لغة الشعر تختلف طبيعتها عن لغة النثر، نظرا لما يمتاز به الشعر من خصائص فنية تقتضي تراكيب معينة يسمح للشاعر فيها بحرية أكثر في التقديم والتأخير وغير ذلك ليلائم بين المضمون من جانب والإطار الخارجي - وهو الوزن والقافية - من جانب آخر، ليسهم التقديم والتأخير من هذا الجانب في تقسيم العبارة على نحو يتناسب مع الوزن، إذ تساعد هذه الظاهرة في إيجاد ذلك التوافق بين التراكيب ومستلزمات الوزن والقافية، فكثيرا ما نجد الشاعر يحدث تغييرا في مكونات الجملة بما يتلاءم والقواعد المقررة في الوزن والقافية.

إن الموسيقى تمثل ركنا ركينا لا ينفك عن التراكيب والمعاني وتؤثر في السلوك اللغوي للشعراء، فإذا كان في الشعر عنصر قار لا بد من الانطلاق منه والرجوع إليه فإنما هو عنصر الموسيقى، يكون ذلك بالاحتكام إليه خاصة، حيث تتعطل قاعدة نحوية أو تضعف بنية صرفية أو تغمض وجهة دلالية[8]، وكعادة الشعراء الذين يناهضون الأعراف اللغوية المستقرة لأنهم يرون أن هذه الأعراف لم تعد في خدمة الأغراض التي يسعون إليها،

فالشاعر إذا توصل إلى صورة منسجمة مع الموسيقى فهو لا يتردد في مخالفة النظام اللغوي ولكنه يخالف من أجل أن يوافق من جهة أخرى ويهدم من أجل البناء.

لذا يقسم الدارسون التقديم إلى ضربين: أحدهما يفيد فائدة معنوية ترجع إلى معنى الكلام، وثانيهما ما كان الغرض منه لفظيا كالتوسعة على الشاعر حتّى يستقيم له وزنه وتطّرد قافيته[9]، وبهذا يكون لظاهرة التقديم والتّأخير دور في المعنى من حيث إثراؤه بدلالات تكثفه، ودور في أدائه بفنيّة.

إن ظاهرة التقديم والتّأخير لها فاعلية كبيرة في تنسيق الكلمات وترتيبها وفق ما يقتضيه السياق، من الناحية الموسيقية، أو من الناحية الإيحائية والدلالية، وقد أخذت مسألة تنظيم الكلمات أهميّة بالغة في جماليات النّشاط التصويريّ، حيث لاحظ البلاغيون أنّ المعنى في الشعر لا يستطيع أن يظفر باستقلال واضح، وأنّه يرتبط بفكرة التنظيمات الداخلية للألفاظ المستعملة في تشكله وتكوينه، أي أن التنظيم يعطي له غنى ومادة جديدة[10]، فليس المقصود المعنى القريب الذي يؤخذ من اللفظ لأوّل وهلة، ولكنّ المراد المعاني الإضافية والدلالات الثانية التي تنبع من التراكيب، والتي تفهم من بين السطور[11]. وبهذا تبتعد العبارة عن الأداء العادي إلى أداء فنيّ غني بالإيحاءات الدلالية الناتجة عن طريق مخالفة الأداء المعياري، والخاضعة في الوقت نفسه إلى مقتضى الحال، إذ لا يحكم بشرعية العدول إلا إذا كان له قيمة مضافة.

ويعمل والتقديم والتأخير وفق خصائصه البنيوية والتداولية بتناغم مع باقي الفعاليات الشعرية القائمة على قانون الانحراف عن اللغة المعيارية، ولذلك تكتسي دراسته أهمية لا تقل، بصورة التركيب النحوي الشاملة، عن دراسة التركيب البلاغي، خاصة إذا شكل بؤرة في الفعالية الشعرية، وأعطى الجملة النحوية قيمتها التعبيرية[12].

ولبيان ما جاء في هذا العرض النظري، نحاول تقديم مجموعة من النماذج نوضح من خلالها فاعلية التقديم والتأخير في تشكيل العبارة الشعرية لدى، وفي فعل القراءة والتأويل عند القارئ، ولننظر إلى قول ابن الأبار القضاعي في سينيته الشهيرة التي تعتبر من أشهر مراثي الأندلس يستصرخ فيها أبا زكريا القائد الحفصي عندما أوفده ابن مردنيش حاكم بلنسية:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجـــاتها قد درســا
في كل شـــارقة إلمـــــام بائقة يعود مأتمها عند العـــــدى عرسا
وكلّ غـــاربة إجحـــــاف نائبة تثني الأمان حذارا والســـــرور أسى

فنلاحظ أن الشاعر قد أحدث تشويشا في عناصر التركيب من خلال تقديم شبه الجملة (بخيلك) على المفعول به (أندلسا)، فالأداء المعياري لهذا التركيب يقتضي أن يقول (أدرك أندلسا بخيلك خيل الله)، فهو حين قدم شبه الجملة على المفعول به إنما يقدّم الوسيلة على الغاية، ذلك أننا عندما نفكر في الغايات يجب ألا نتجاهل الوسائل، فالوسيلة هنا هي جيش من الفرسان الأشداء، والغاية نجاة الأندلس، إذ ليس من المنطقي الحديث عن الغاية في ظلّ غياب الوسائل، كما عمد الشاعر إلى تقديم العيون الباكية على سبب البكاء، ليظهر عمق المعاناة، وحجم الخسف الذي يسومه الروم لأهل الأندلس، فلقد أتى عليهم حين من الدهر وصلوا إلى هذه الدركة التي لا يحمدون عليها ولا يحسدون، وحتى يسهم كلّ ذلك في توصيف الحالة المأساوية التي يعيشونها، ممّا يؤثّر في نفس كلّ حرّ له غيرة على بني جلدته، فمن يسمع بما يحدث للمسلمين هناك يذوب قلبه كمدا، وكيف لا وما حدث يهوي له أُحد و ينهدّ ثهلان على حدّ تعبير أبي البقاء الرندي في نونيته المشهورة في رثاء الأندلس، فهو حين يقدّم هذا التوصيف إنّما يقصد التّأثير في نفسية المتلقي فتنتابه هالة من الأحاسيس الحزينة، والمشاعر الكئيبة.

كما نجد ابن الأبار في القصيدة نفسها يتكئ على هذه الجسارة التركيبية كما في قوله:

وَهَبْ لهَا مِنْ عَزيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عـزُّ النَّصْر مُلْتـــمَسا
قَـامَتْ عَـلَى الـعَدلِ وَالإحسـانِ دَعْوَتُـه وأَنْـشَرَتْ مِـنْ وُجُـودِ الـجُودِ مـا رُمِســا
مُبَـارَكٌ هَـدْيُـهُ بـادٍ سَكيـنَتُـهُ مَـا قـامَ إلا إلَـى حُـسْـنَى وَلا جَـلَسـا
قَـد نَـوَّرَ اللَّهُ بِالتَّقوَى بَصِيرَتَـهُ فَـمَا يُبالي طُروقَ الخَـطْبِ مُـلتَبِسا

فهناك غرض بلاغي ومقتضى دلالي وآخر موسيقي، يستدعيان هذا الإجراء التركيبي، فتقديم الجار والمجرور (منك) على الخبر (ملتمسا) إنما أريد به بيان أهميّة المخاطب وخطورة الدور الملقى على عاتقه، والمتمثل في عزّ الأمة من خلال تقديم أسباب نصرها، فالأمم إذا اضطرم شعورها بالحاجة إلى الشيء اتّجهت أنظارها إلى قادتها وتحرّكت ألسنتها بالتّساؤل عن رجالها، وأمّا تقديم شبه الجملة (على العدل والإحسان) على الفاعل (دعوته)، فحتى لا يتشتت عقل السامع على احتمالات عديدة (قامت على الظلم، أو على الفساد، أو على الاستبداد...)، وقدّمت أيضا نظرا لأهمية العدل في قيام الدول والممالك، فالله يقيم دولة العدل ولو كانت كافرة، ولا يقيم دولة الظلم ولو كانت مسلمة، فعمر بن عبد العزيز عندما راسله أحد ولاته بأن يمنحه مالا لترميم سور المدينة قصد تحصينها من الأعداء، ردّ عليه قائلا: " حصّنها بالعدل ".

ويستمر ابن الأبار في الاعتماد على تقنية التقديم والتأخير في قصيدته الاستصراخية وهذا ما يظهر أيضا في قوله:

وقد تـــــواترت الأنبـــاء أنّك مـــن يحـــــــي بقتل ملوك الصفر أندلسا
وأوطـــــــئ الفيلق الجرّار أرضـــهم حتى يطأطـــئ رأســـا كـــلّ من رأسا

حيث قدّم شبه الجملة من الجار والمجرور (بقتل ملوك الصفر) على المفعول به (أندلسا)، فنجد أنّ التقديم هنا جاء لتعجيل المساءة بالنسبة إلى الصليبيين، ومن ثمّ تعجيل المسرة بالنسبة إلى المسلمين، فهنا يقدم الوصفة الإحيائية للأندلس التي لا سبيل

إليها إلا بقتل من كانوا سببا في مأساتها، والذين لا يقاتلون إلا في سبيل استعباد الإنسان وامتهان كرامته، بينما المسلمون يقاتلون في سبيل تحريره وإسعاده في الدارين، وعزّته، فهل يستويان مثلا.

كما قدّم المفعول به (رأسا) على الفاعل ، فآثر البدء بالعاقبة لإبراز مدى إذلال قادة الروم الذين قادوا حملات شعواء على الأندلس، كما أنّ تأخير الفاعل يشغل العقل في مسرح من التوقعات الذهنية لما يبشر به من هذه عاقبته، وليكون ذلك أدعى لاستقرار المعنى وثبوته، وهذا كله يثير انتباه القارئ وتشويقه لمن تكون عاقبته الذلّ والهوان.

ونقدم نموذجا آخر يجلي الجمالية البلاغية لتقنية التقديم والتأخير في قول مفدي زكريا:

واصدع بثورتك الزمان وأهلـــــه واقـــــرع بدولتك الورى والمجمعا

وقل الجزائر واصغ إن ذكر اسمها تجـــــد الجبابر ساجدين وركعا

مما يلاحظ في هذين البيتين اتكاء مفدي زكريا على ظاهرة التقديم والتأخير بوصفها جسارة تركيبية تتيح للشاعر تشكيل عبارته الشعرية بما يتساوق مع الجانب الإيقاعي من جهة، وما يمكن أن ينتج عنها من أبعاد دلالية، ففي تقديمه لشبه الجملة (بثورتك) على المفعول به (الزمان) دلالة أنه لا مخرج للشعب ولا وسيلة تمكنه من دحض الاحتلال واستعادة سيادته وحريته إلا بالثورة، فهي السبيل الأوحد لذلك. كما أن في تقديم شبه (بدولتك) على المفعول به (الورى) مخالفة للمعيار النحوي، إلا أنه مكن للشاعر موافقته للضابط الإيقاعي في البيت، كما نلمس مع ذلك بعدا دلاليا يتمثل في مدى انتماء الشاعر لدولته واعتزازه بها، وأن الجزائر إنما هي دولة لها سيادتها وليست جزءا من فرنسا المحتلة كما يروج له.

كما يلفت انتباهنا التقديم الحاصل بين المتعاطفين من خلال تقديم (ساجدين) على (ركعا)، ففي عرف النحاة أن الواو تفيد الجمع بين المتعاطفين دون ترتيب أو تعقيب أو تراخٍ على عكس (الفاء) و (ثم)، إلا أن التصور البلاغي في أحيان كثيرة يجد مبررات لتقديم

أحد المتعاطفين على الآخر، وقد يكون هذا المبرر مبررا إيقاعيا، ذلك أن الشاعر لو قال راكعين وسجدا، ما اختل الوزن العروضي للبيت، لكن يفقد القصيدة إيقاعيتها بحيث يخرج عن روي القصيدة، وقد يكون هناك مبرر دلالي لتقديم السجود على الركوع، ذلك أن في السجود مذلة وخضوعا أكثر منها في الركوع.

إن مقاصد الشاعر كثيرا ما تدفع به إلى التقديم والتأخير بين مكونات القول، كما هي الحال في قول عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة:

ورثنا المجـــد قـــد علمت معد أنّـــا نطـــاعن دونه حتى يبـــينا

بشبـــــان يرون القتل مجـدا وشيب في الحـــروب مجـــــربينا

فضلا عن الداعي الإيقاعي للتقديم والتأخير بين أجزاء القول في تقديم (بشبان يرون القتل مجدا) وتأخير (وشيب في الحروب مجربينا)، نلمس بعدا دلاليا وملمحا بلاغيا في هذا الترتيب، وهو أن ميدان الحرب يحتاج إلى قوة وعنفوان الشباب أولا، إلا أن هذه الأولوية لا تعني الأفضلية أمام تجربة الشيوخ وحنكتهم وخبرتهم في شؤون الحروب والقتال التي تسدد هذه القوة وترشدها، وعليه فإن التقديم ههنا ليس تقديم أفضلية وإنما هو تقديم أولوية لا غير.

كذلك نلحظ خرقا وتشويشا في ترتيب مكونات العبارة في قول الشاعر: وشيب في الحروب مجربينا، حيث قدم شبه الجملة (في الحروب) على الصفة (مجربين)، وفي هذا ملحظ بلاغي لطيف يتمثل في تقديم مصدر الخبرة والتجربة التي يحوزها الشيوخ وهو كثرة خوضهم لغمار الحروب والمعارك التي أكسبتهم هذه الصفة، وما يؤكد هذا المعنى مجيء الحروب جمعا، ذلك أن الخبرة لا تحصل من حرب أو اثنتين وإنما من مجموع الحروب التي يتم خوضها.

ويشكل التقديم والتأخير في بناء العبارة الشعرية بؤرة دلالية في قول عمرو بن كلثوم:

إذا بلـــــــغ الفطام لنا صبي تخـــــــرُّله الجبابرُ ســـــــاجدينا

حيث قدم الشاعر المفعول به (الفطام) وشبه الجملة (لنا) على الفاعل (صبي)، وكذا تقديم شبه الجملة (له) على الفاعل الجبابر، والنمط المعياري يقتضي الترتيب، فالأصل أن يقول: **إذا بلغ صبي الفطام لنا تخر الجبابر له ساجدينا**

وإن كان هذا الأداء المعياري يحدث خللا على مستوى موسيقى البيت، فإنه يفقده شحنات دلالية أيضا، حيث إن في تقديم المفعول به (الفطام) بعدا دلاليا يتمثل في الاهتمام بهذه المرحلة العمرية والتي من خلالها تظهر مبالغة الشاعر في الافتخار بقومه، فإذا كانت الجبابر تخر لصبي من قومه وهو في مرحلة الفطام، فكيف ستكون الحال حال بلوغه سن الرشد مثلا، وكذلك في تقديم الشاعر لشبه الجملة (لنا) دلالة على الافتخار أيضا بحيث إن هذا الصبي إنما تخر له الجبابر ساجدين لا لشيء إلا لأنه من قبيلة الشاعر، فما كان هذا ليحدث لو كان من قبيلة أخرى، وفي هذا كله خدمة للغرض الشعري الذي تنتمي إليه القصيدة، كما أفاد تقديم شبه الجملة (له) على الفاعل (الجبابر) الاختصاص، حيث إن هذه المكانة والمهابة والعظمة لا يختص بها إلا من كان تغلبيا، ومن هنا يصبح لتقنية التقديم والتأخير امتداد لا على المعاني الشعرية بل على مستوى الأغراض أيضا.

وفي قول بشر بن المعتمر الشاعرَ المعتزليّ:

لله دَرُّ العقل من رائدٍ وصاحبٍ في العُسر واليُسرِ

نلاحظ تقديم أحد المتعاطفين العسر على اليسر، وإن كان تقديم أحد المتعاطفين في عطف النسق بالواو في رؤية النحويين ليس لها مبرر صارم، إلا أن التقديم في رؤية البلاغيين قد لا يخلو من لطيفة بلاغية كما هو الشأن في قول بشر بن المعتمر، ذلك أن الشاعر لو قال: وصاحبٍ في اليسر والعسر، ما كان ليقع في محضور الوزن والإيقاع، ولعل تقديمه للفظ العسر على اليسر يرجع إلى أننا وإن كنا في حاجة ماسة للعقل في أوقات اليسر، فإننا نكون في حاجة أمس للعقل في حالة العسر عند الوقوع في المشكلات حيث يصبح تشغيل العقل ضرورة لإيجاد حل للخروج من هذه المشكلة أو تلك.

كما نلمس بعدا دلاليا في تقنية التقديم والتأخير التي يستند عليها نزار قباني في بناء عبارته الشعرية ينضاف إلى الضابط الإيقاعي في قوله:

في مدخل الحمـــــــراء كان لقاؤنا ما أطيب اللقـــــيا بلا ميعـــــــاد

نلاحظ أن الشاعر قدم شبه الجملة (في مدخل الحمراء) الواقعة خبرا، على كان واسمها (كان لقاؤنا)، لما في هذا التقديم من دلالة لها ارتباط بالبعد المكاني الذي يمتزج بالبعد التاريخي، هذا ما يشكل ملمحا فنيا بارزا، فهذا المكان (مدخل الحمراء) قد بات رمزا لضياع الأوطان وتذكر أمجاد العرب في تجربة الشاعر نزار قباني.

5.خاتمة:

ما يكمن أن نخلص إليه من نتائج في خاتمة هذا البحث:

-الشعر خطاب متفرد بنظمه وأساليبه وعباراته ونماذجه الفذة، فاستثمار الشاعر لخصائص التركيب اللغوي يمكنه من إنشاء بناء لغوي له نسقه الجمالي وتركيبه الخاص، فاللغة الشعرية أرقى مستويات اللغة، وكلما تحقق قدر أكبر من الخرق للمعايير اللغوية العادية كلما اقتربت اللغة من جوهر الشاعرية.

-إن الإيقاع بوصفه جوهر الخطاب الشعري له دوره في فرض نمط من النظام اللغوي يتواءم معه، ذلك أن خلخلة النظام اللغوي (التقديم والتأخير بين أجزاء التركيب) قد لا تكون لمبررات دلالية وإنما لمبررات إيقاعية محضة.

-إن التركيب اللغوي في الرؤية البلاغية لا ينظر إليه من ناحية الصحة النحوية فحسب بل ينظر إليه من حيث المعاني والدلالات التي ينبض بها.

-إن العدول عن الترتيب المثالي في العبارة الشعرية يعد أهم الخصائص التي تظهر في التعبير الشعري، فتكسبه الدلالات الشعرية والمعاني البلاغية.

-تعتبر تقنية التقديم والتأخير أداة بلاغية ذات فاعلية كبيرة تثير اهتمام القارئ فتدفعه إلى استبطان الدلالات الكامنة.

*** *** ***

6. الهوامش:

[1] يوسف إسماعيل، البنية التركيبية في الخطاب الشعري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2012، ص5،6.

[2] المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، أكاديمية الفكر الجماهيري، ليبيا، 2012، ص96.

[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص106.

[4] سيبويه، الكتاب، ج1، مصدر سابق، ص106.

[5] الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص108.

[6] محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت، ص46.

[7] المرجع نفسه، ص79.

[8] صالح عبد العظيم الشاعر، مرجع سابق، ص22.

[9] عبد العاطي غريب علام، دراسات في البلاغة العربية، منشورات جامعة قاريونس، ط1، بنغازي، ص308.

[10] تامر سلوم، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سوريا، 1993، ص112.

[11] عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، دار المريخ للنشر، الرياض، ص156.

[12] يوسف إسماعيل، البنية التركيبية في الخطاب الشعري، مرجع سابق، ص14.

*** *** ***